

الوحدة



استسلم لمرتين بعد فجيئته في حببته
الى الهم ، واستانس بالوحدة ، واستكان
للعبرة ، وخلا الى الحزن في خلوات
(ميل) ومن هناك بعث الى صديقه
(فريو) بهذه القصيدة في ٢٤ أغسطس
من سنة ١٨١٨ وهي :

جلست محزون القلب ، مستطار اللب
على قلة الجبل الشاهق ، وتحت ظلمة السنديانة
العتيقة ، أشيع شمس النهار وهى تغرب ،
وأسرح بصرى فى وجوه السهل وهى تتغير :

* * *

فهنا النهر صخاب الموج ، جياش
الزبد ، ينساب فى جوف الوادى ، ثم يضل
فى ظلام البعد ! وهناك البحيرة راكدة
السطح ، راقدة الماء ، تتراعى فى جوانبها
نجوم الليل !

* * *

والطَّفَل لا يزال يلقى على رؤوس
الجبال الشجراء ومضاً من شعاعه ، وملك
الليل^(١) قد أخذ يصعد إلى عرش السماء فى
محفته الندية ، فأشرقت جوانب الأرض ،
وازدهرت حواشى الأفق .

* * *

وناقوس الكنيسة الفوطى قد هب
يقرع الهواء برنينه الدينى ، فكف الفلاح

(١) ملك الليل : القمر .

عن العمل ، ووقف السائر عن المسير ،
واختلطت هذه الأرائين المقدسة بما بقي
من ضوضاء النهار وصخبه !

* * *

ولكن نفسى كانت من كل هذا
خلية ! فما تبعث فيها هذه المناظر الجليلة ،
ولا تلك الصور الجميلة ، ، نشوة ولا بهجة !
لقد كنت أتأمل الأرض وكأنها ظل
متنقل أو خيال طائف !

* * *

إن شمس الأحياء لا تدفى الموتى ،
فكنت أنقل عيني من الربى إلى
الجبال ، ومن الجنوب إلى الشمال ، ومن
ظلمة الغسق إلى حمرة الشفق ؛ وأنفص^(١)
السهل والوعر ، والمأهول والقفر ، عسى
أن أجد لنفسى سعادة فى مكان ، أو أتوسم
لقلبي راحة فى إنسان ، فلا أعود بطائل !

* * *

وماذا تصنع لى هذه الأودية والأكواخ

(١) نفص المكان : نظر لى كل ما فيه ليعرفه .

والقصور ما دمت لا أبجد لجمالها في عيني
روعة ، ولا لسحرها في قلبي فتنة ؟
أيها الأنهار والأحجار والغابات
والخلوات العزيزة على ! إن غيبة مخلوق
واحد من ربوعكن جعل عامر كن خراباً ،
ورداً أنسكن وحشة !

* * *

سواء على أتطلع الشمس أم تغيب ،
وتصحو السماء أم تغيم ، ويظلم الليل
أم ينير الصبح ، فليس لي بغية في اليوم
ولا رجية في الغد .

* * *

وحيثما أرسل عيني تتبعان الشمس في
مدارها الرحب القصي ، لا أبصر في كل
مكان غير الفراغ والخلو ! لا حاجة لي إلى من
تظله السماء ، ولا رغبة لي فيما تنيره الشمس .

* * *

ولكن من وراء هذا الفلك الدائر
وهذه الشمس الساطعة أمكنة أخرى
تسطع فيها الشمس الحقيقية ! فلو أتيح لنفسي

أن تخلص من قفصها لرأت في تلك السموات
حبيبها الذى طالما بكّت عليه وحنّت إليه !

* * *

هنالك أنتشى من رحيق الغبطة
وأظفر بالأمل والمحبة ، وأنعم بما تآقت إليه
نفسى من متع لا تمر على سمع ولا تدور بخلد

* * *

ما أعجزنى أن أطير إليه وأنا مثقل
بقيود المادة خاضع لجاذبية الأرض !
وليت شعرى لماذا قضى الله أن أبقى إلى
اليوم فى أرض المنفى وما تربطنى بها رابطة
ولا تصلى بأهلها صلة !

* * *

إذا ما ذوت الأوراق فى المرج ،
وأسقطها قرّ الخريف فى الوادى ، هبت
عليها الشمال فذهبت بها أبديداً ! وأنا بهذه
الأوراق الذابلة أشبه ! فاحيلنى أيتها الريح
كما حملتها ، وانثرينى فى وجوه الفضاء كما
نثرتها ، فما بعد الصباح إلا المساء ، وما بعد
اليأس والوحدة إلا الفناء !